جهود الأمة في خدمة القرآن الكريم
من خلال مفهوم السنن الإلهية في التاريخ والاجتماع البشريين

الدكتور الطيب الوزاني

تقديم

ظل القرآن الكريم طيلة تاريخ الأمة المسلمة محور اهتمامها، والمتصفح لتاريخ هذه الأمة يدرك حجم تفاعل علمائها مع القرآن الكريم وخدمتهم له من جوانب متعددة، وكانت أهم الجوانب التي لقيت اهتماما واسعا هي المتعلقة بالفقه والأصول والعقيدة واللغة، ورغم أن الدراسات القرآنية انتهت إلى تأسيس علم خاص بالقرآن الكريم هو علوم القرآن أو علم التفسير أو علم أصول التفسير إلا أن علوما أخرى نالت حظا كبيرا من الخدمة ويتعلق الأمر بعلم العقيدة والفقه وأصوله وعلوم اللغة وعلوم الأخلاق والتزكية، وكلها علوم مدارها على القرآن الكريم، وإذا تتبعنا تاريخ الاهتمام بالقرآن الكريم وخدمته ألفينا اختلاف حظ كل علم من خدمته للقرآن بحسب الأزمنة والأمكنة وحاجة الأمة وقوة المسلمين أو ضعفهم، ولعل الاهتمام بالفقه والتفسير كان واحدا من أول الاهتمامات التي انصرفت إليها همة العلماء لأن المسلمين فهموا أن رسالة الإسلام رسالة عملية فانصرفوا إلى استنباط الأحكام العملية من القرآن الكريم والسنة النبوية، ثم لما حدثت الخلافات في أواخر الخلافة الراشدة ودخلت الأمة زمن الدولتين الأموية والعباسية في أحداث سياسية وظهرت الفرق احتيج إلى ظهور علم الكلام. غير أن شيوع ظاهرة التأويل المذهبي واللحن في اللغة أوجد الحاجة لتأسيس علوم اللغة وتدوين علم أصول الفقه لضبط التأويل الشرعي من جهة، كما كان لظهور الفواحش في المجتمع والانغماس في الدنيا والتنافس فيها أثره في ظهور حركة الزهد والسلوك.

والملاحظ في المسيرة العلمية للأمة في خدمة القرآن الكريم أن هذه المسيرة ارتبطت بخدمة الوحي من ناحيتين: ناحية نظرية وعلمية، وناحية عملية تطبيقية، والغاية من العمليتين هو استنباط كل ما يتعلق بالشرع ويفيد الأمة في فقه دينها واستمرار التدين فيها ووراثة النبوة والقيام بوظائفها في العلم بالدين والعمل به وتبليغه.

والأسئلة التي توجه البحث في هذا الموضوع هي: ما هي السنن القرآنية؟ وما هي صورها ونماذجها؟ وما هي وظيفتها في خدمة الدين والأمة؟ وما نصيب هذه السنن من هذه الخدمة؟ وهل اعتنى المسلمون قديما بالسنن الإلهية بقدر اهتمامهم بالفقه واللغة والأصول أم لا؟ متى بدأ الاهتمام بالبحث في السنن الإلهية في القرآن الكريم؟ وهل نجد لدى القدماء دراسات وبحوثا مستقلة بهذا المجال؟ وما هي قيمة الجهود التي أضافها المسلمون المعاصرون لخدمة القرآن الكريم في مجال السنن الكونية؟

المحور الأول: في التحديد الدلالي

أولا - تعريف السنن:

يتعين ابتداء قبل الكشف عن مختلف جهود الأمة في بيان السنن الإلهية وفقهها أن نوطئ للأمر ببيان معاني ودلالات لفظ السنة في اللغة وفي الاستعمال القرآني، ثم تركيب خلاصة واستنتاجات.

1- في اللغة:

تفيدنا معاجم اللغة بجملة معان تخص لفظ السنة في اللغة، وعليها تبنى الدلالة الاصطلاحية. ومن المعاني التي يمكن إيرادها في هذا السياق اللغوي مما له تعلق بمجالنا ما يلي:

1-1- الطريقة: قال الجوهري: السنن الطريقة.(الصحاح)، وقالَ شَمِرٌ: السُّنَّةُ في الأَصْلِ سُنَّة الطَّرِيقِ، وهو طَرِيقٌ سَنَّه أَوائِلُ الناسِ فصارَ مَسْلَكاً لِمَنْ بعْدِهِم. (تاج العروس من جواهر القاموس: 231/35) وذكر السمين الحلبي أنها: "الطريقة التي يكون عليها الإنسان ويلازمها ومنها سنة الأنبياء"(الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: السمين الحلبي، تحقيق: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، 1406ه/1986م، 3/399-400)

1-2- السيرة والطبيعة: قال المقري: السنة: الطريقة، والسنة: السيرة حميدة كانت أو ذميمة (المصباح المنير)، وفي القاموس المحيط:" السيرة والطبيعة" . والطبيعة من معانيها: السجية التي جبل عليها الإنسان أو طبعه الذي يتصف به من الأخلاق حسنة أو سيئة، وتشكل سيرته في الحياة يسلك وَفْقَها، وأورد الفيروز آبادي أن الأصل في معنى السنة أنها "الطريقة والسيرة ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: "من سنّ سنة حسنة" أي طرق طريقة حسنة، وسنة النبي صلى الله عليه وسلم طريقته التي كان يتحرّاها، وسنة الله قد تقال لطريقة حكمته وطريقة طاعته"[3].

1-3- الاستقامة على نهج واحد: قالَ الجَوْهرِيُّ: السَّنَنُ: الاسْتِقامَةُ. يقالُ: أَقامَ فلانٌ على سَنَنٍ واحِد. ويقالُ: امْضِ على سَنَنِك أَي على وَجْهِك. وقال الإمام الرازي في تفسيره: "والسنة: الطريقة المستقيمة والمثال المتبع)[5]

1-4- التتابع والاطراد: جاء في معجم مقاييس اللغة أن السين والنون أصل واحد مطرد، وهو جريان الشيء واطراده في سهولة، يقال: سن الماء والتراب: صبه برفق وتتابع وباطراد، ويطلق لفظ السنينة (ج. سنائن) على الريح إذا كانت تجري على طريقة واحدة لا تختلف.

1-5- الدوام : وهذا المعنى نقله الإمام الشوكاني في إرشاد الفحول عن الكسائي أن السنة : معناها الدوام، فقولنا سنة معناه: الأمر بالإدامة من قولهم سننت الماء إذا واليت صبه. (إرشاد الفحول: الشوكاني، تحقيق أبي مصعب محمد سعيد البدري، مؤسسة الكتاب الثقافية، ط4، 1414ه/1993م)

---

[3] - بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز ابادي ، ج3 ، ص 267 - 268 .

[5] - تفسير الرازي ، ج9 ، ص 11 .

1-6- التشريع: يطلق لفظ السنة ويراد به الشريعة، وسن سنة بمعنى شرع شريعة .

1-7- الاتباع والعمل بأمر: يقال استن بسنته أي تبعه فيها وعمل بها، ويقال استسن بالشيء: اتبعه.

1-8- حسن السياسة:يقال سن الإبل يسُنها سنا إذا ساقها سوقا، ويقال سن الأمير رعيته: ساسها سياسة حسنة (الحكمة في التدبير)

يستفاد من المعاني اللغوية السابقة أمورا ثلاثة:

الأول: أنها تصب في القول إن السنة هي تصرف وسلوك ارتقى إلى أن يصبح عادة مستقرة وثابتة ومطردة يدبر بها صاحبها أمره على نسق واحد، يتبعها باستمرار ويعمل بها في كل تدبيراته حتى صارت كأنها شرع له يتبعه وسيرة يسير على هديها، ونهج ينهجه وطريق يستقيم عليها بكيفية دائمة من غير أن يتخلف عنها.

الثاني: أن من هذه المعاني يمكن استخلاص بعض خصائص السنة التي هي: التوالي والتتابع والاطراد والدوام وعدم التخلف.

الثالث: وظائف السنة: حسن تدبير الأمر، الهداية والإرشاد، تنظيم الأمور (الطريقة، التشريع، الاستقامة)

وهذه المعاني والخصائص والوظائف سيتم البناء عليها واستصحابها في بناء الدلالة الاصطلاحية ، كما سيأتي.

2- التعريف الاصطلاحي للفظ السنة باعتبار التركيب في استعمالها القرآن الكريم:

ورد لفظ السنة في القرآن الكريم ومشتقاته ستة عشر مرة وفي إحدى عشر آية، وورد مستقلا (سنن) مرة واحدة، وفي الباقي مضافا مرة إلى ذات الباري جل وعلا : (سنة الله، سنتنا)، ومرة مضافا إلى الأولين (سنة الأولين) أو إلى الذين من قبلكم (سنن الذين من قبلكم)، ومرة مضافا إلى الرسل بصيغة:(سنة من قد أرسلنا من قبلك من رسلنا)

وانطلاقا من هذه الإضافات يمكن أن نقف على ثلاثة أنواع من السنن: سنن الله، سنن الرسل، سنن القوم الغابرين(الأولين، من قبلكم)، وسنقف عند بعض المعاني التي أعطيت لهذه السنن باعتبار ما أضيفت إليه:

2-1- سنة الله:

بناء على التعريف اللغوي السابق وجدنا علماء الأمة يحاولون تفسير لفظ سنة الله الذي ورد في القرآن الكريم فبعضه فسرها بأنها:

2-1-1- حكم الله وأمره ونهيه: قال ابن منظور: سنة الله : أحكامه وأمره ونهيه سنها الله للناس أي بينها. (لسنا العرب، القاموس المحيط: مادة سن)، وسنن الله هي شرائعه التي يرشد الإنسانية بها إلى الله وإلى الحق"(موسوعة ألفاظ القرآن الكريم: محمد عبد المنعم خفاجي، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، 1988م، 141-142)

2-1-2- عادة الله في فعله: وقد ذكره ابن تيمية حين قال السنة هي العادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني مثل ما فعل في نظيره الأول، وقال أيضا في"رسالة في لفظ السنة في القرآن": "إن الله أخبر أن سننه لن تتبدل ولن تتحول، وسننه : عادته التي يسوي فيها بين الشيء ونظيره الماضي، ولهذا أمر الله تعالى بالاعتبار "[4]، وتبعه ابن القيم قال: سننه تعالى هي عادته المعلومة، وقال الآلوسي: في تفسير قول الله تعالى:"وقد خلت سنة الأولين "والمراد: عادة الله تعالى فيهم".

2-1-3- طريقة الله ومنهجه في معاملة البشر: وهذا المعنى نجده عند كثير من المعاصرين والقدامى، منهم:

* محمد عبد المنعم خفاجي عرف السنة بأنها:" الطريقة والمنهج والمسلك، وسنة الله هي المنهج الإلهي في تسيير أمور حياتنا، وهي طريقته في تربية الأمم". (موسوعة ألفاظ القرآن الكريم: محمد عبد المنعم خفاجي، م.س)

* والشيخ عبد الكريم زيدان عرف سنة الله قائلا إنها "الطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى للبشر بناء على سلوكهم وأفعالهم وموقفهم من شرع الله وأنبيائه وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة"

2-1-4- قانون الله ونظامه: وذهب لهذا المعنى غير واحد، منهم:

* الشيخ عبد الكريم زيدان أيضا قال " معنى ((السنة)) هو معنى (القانون العام) من حيث خضوع أفعال البشر وسلوكهم إلى أحكام هذه (السنة) التي يمكن تسميتها بالقانون العام ."

* الشيخ القرضاوي قال :" هي القوانين التي أقام الله عليها نظام الكون ونظام المجتمع، وهي سنن وقوانين لها صفة العموم والشمول، كما لها صفة الثبات والدوام". (العقل والعلم في القرآن الكريم: يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، 1416ه/ 1996م، ص 279)

2-2- سنة الرسل:

وقد فسر كثير من المفسرين سنة الرسل بأنها طريقتهم التي كانوا ينهجونها في طاعة الله وامتثال أمره وسيرتهم التي كانوا يسيرونها وفق شريعة الله التي أوحى الله لهم بها، لذلك قال الراغب الأصفهاني: سنة النبي: طريقته التي كان يتحراها(معجم مفردات ألفاظ القرآن: مادة سنن)

2-3- سنة القوم السابقين:

2-3-1-وقائع الله فيمن خلا قبلكم من الأمم (الطبري: جامع البيان:10/14، والبغوي: معالم التنزيل:45/3)

2-3-2- طريقتهم التي سنها الله في إهلاكهم حين فعلوا ما فعلوا من التكذيب والاستهزاء (الشوكاني فتح القدير 123/3، والألوسي: روح المعاني:19/14).

---

[4] ـ مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ، ج13 ، ص 69 .

ملاحظات واستنتاجات:

الأولى: يلاحظ في هذا السياق أن المفسرين مالوا إلى تفسير سنن القوم السابقين/ الأولين بإسنادها إلى الله: وقائع الله فيمن خلا، وطريقتهم التي سنها الله في إهلاكهم. ولذلك يمكن أن نستنتج أن ما ورد في القرآن الكريم من ألفاظ السنة مضافا إلى الله جل وعلا أو إلى رسله أو إلى القوم السابقين (سنة الأولين ، سنن الذين خلوا من قبل) يصح أن يحمل فيها المعنى على سنن الله وحكمه وطريقته في معاملة خلقه وشرائعه وأحكامه وحِكَمه وهديه وقوانينه، لأن كل ذلك راجع إليه سبحانه إما ابتداء وإما ترتيبا على فعل العباد جزاء لهم على ما فعلوا ويدل على ذلك تعقيب الله على الآية التي فيها نسبة:

- السنة إلى الأولين بما يشعر بإمكان إضافتها إلى ذاته أيضا فقال تعالى:"سنة الله في الذين خلوا من قبل، وكان أمر الله قدرا مقدورا"(الأحزاب:38)، وتهديد الكفار بقوله تعالى :"وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين" على معنى فقد مضت سنة الله في الأولين بتقدير حرف الجر "في"، وما يؤكد ذلك هو التعقيب بإضافتها إلى ذاته العلية: "فهل ينظرون إلا سنة الأولين، فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا"(فاطر:43)
- السنة إلى رسله ثم عقب بإضافتها إلى ذاته العلية مع توكيد صفاتها في الثبات والاطراد وعدم التحول، نحو قوله تعالى:"سنة من قد أرسلنا من رسلنا، ولن تجد لسنتنا تحويلا"(سورة........ :)

يشعر كل هذا أن ورود لفظ السنة في القرآن الكريم رغم اختلاف مضافاته يؤول إلى معنى واحد هو سنة الله، وهذا هو الذي يسوغ تغليب لفظ السنن الإلهية على ما ورد في القرآن الكريم من هذه التركيبات.

الثانية: يستفاد من التعاريف اللغوية والاصطلاحية أنها:

أ- تشترك في الدلالة على:

- معنى الطريق والنهج والمحجة والمسلك
- العادة المألوفة والمتبعة والتي لا يحيد عنها صاحبها بل يلازمها ولا يكاد يزايلها.
- النظام والقوانين التي تحكم حركة شيء ويسير وفقها.

ب- بينهما تناسب نبينه على الشكل التالي:

فسنة الله قد تكون عادته المعهودة وطريقته المعلومة التي تلازم أفعاله جل وعلا بشكل مطرد ومتتابع ودائم لا يتخلف، وقد تكون بمعنى حكمه الذي يجب اتباعه وشريعته من أمر ونهي، ونظامه وقانونه الذي يعم جميع خلقه، وإحكام التدبير (حسن السياسة)

الثالثة- الفرق بين تعريف القدماء وتعريف المعاصرين، إذ عرفها القدماء بما هو لغوي: الطريقة والعادة المتبعة والمسلك، في حين أضاف المعاصرون إلى جانب المعنى اللغوي تعريفا علميا قريبا من المجال العلمي الدقيق: النظام القوانين.

الرابعة- الفرق بين تعاريف المعاصرين أنفسهم هو أن البعض لم يميز بين السنن الكونية والسنن البشرية فأدمج بينهما، وبعض الدارسين ميز بينهما:

ولعل ذلك راجع إلى تطور حقول المعرفة العلمية في العلوم الطبيعية وفي العلوم الإنسانية، وإلى الموقف من قوانين الظواهر الإنسانية وحركة المجتمع الإنساني هل هي تخضع للصرامة والثبات والاطراد والعموم مثل الظاهرة الكونية وقوانينها؟ أم أن لها خصوصية خاصة تتسم بالمرونة والتغير وعدم الدقة والنسبية أكثر؟

المحور الثاني:

مسيرة جهود العلماء في خدمة القرآن الكريم من خلال السنن الإلهية في التاريخ والاجتماع البشري

للبحث في جهود الأمة في خدمة القرآن الكريم في مجال فقه السنن الإلهية يلزمنا التعرف على هذه الجهود من خلال تأليفات العلماء في هذا المجال، ومن خلال الدراسات التي أنجزت في هذا المجال مستلهمة توجيهات القرآن الكريم وهداياته، وهنا نقف على ألفاظ كثيرة تشكل مفتاح البحث، كما تشكل مجال الحقل الدلالي المترابط في دلالته مع مفهوم السنن، من قبيل مفهوم السنن(سنن الله، السنن الإلهية، السنن الربانية، السنن القرآنية)، مفهوم التاريخ، مفهوم المجتمع، فقه التاريخ، فلسفة التاريخ، قوانين الحضارة، فلسفة الحضارة، فقه السنن، فقه التاريخ، فقه الحضارة، علم العمران البشري، السنن التاريخية ، السنن النفسية، السنن الاجتماعية،....

ونتساءل هنا: هل كان اهتمام الأمة بظاهرة السنن الربانية في الوحي القرآني والسنة النبوية والسيرة واحدا وبنفس الوتيرة أم خضع لسنة التدرج والتطور؟ وإذا كان قد خضع لسنة التدرج فما الفرق بين مرحلة السابقين ومرحلة المتأخرين؟ بل ما الفرق بين كل مرحلة تاريخية؟ وبماذا تميزت المرحلة المعاصرة؟ وما الذي أضافه المعاصرون لهذا الفقه؟

للوقوف على هذا الأمر نعقد هذا المحور لرصد أهم المحطات التاريخية والمعرفية في التعامل مع السنن الإلهية وخدمة القرآن الكريم من خلالها، ولرصد أهم الأسباب والعوامل التي تحكمت في هذا التعاطي مدا وجزرا.

- مرحلة النبوة والخلافة الراشدة:

كانت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم التطبيق العملي لسنن الله وتوجيهاته الربانية في التربية والدعوة والتبليغ والتدافع بين الحق والباطل، وكانت سنته صلى الله عليه وسلم أقوالا وأفعالا وتقريرات النموذج الأمثل في الامتثال لهذه السنن الربانية والقوانين الإلهية.

وقد سلك الصحابة الكرام والخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم مسلك رسول الله في الاهتداء بسنن الله وهداياته الكونية والتشريعية والدعوية. واستوعبوا الهدى المنهاجي للوحي كتابا وسنة، وعاشوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم مختلف مراحل السير الدعوي والتبليغ والبناء والتدافع، وتمثلوا منهج النبي صلى الله عليه وسلم تصورا وسلوكا وتبليغا. لذلك فإن ما ميز هذه المرحلة ليس هو الكتابة في فقه السنن وإنما هو الاهتداء العملي والاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وغلبة التطبيق والامتثال والعمل على النظر الفكري والجدل.

- مرحلة تدوين العلوم وظهور الفرق:

بعد مرحلة الخلفاء الراشدين انتقلت الأمة إلى مرحلة التفرق المذهبي وهو انتقال كان من أسبابه الخروج عن سنن الله وقوانينه وهداياته والتنكب عنها قليلا من سنن الوحدة إلى الاختلاف، ومن سنن الاعتصام بكتاب الله إلى التفرق فيه، ومن سنن العمل إلى الجدل....

غير أن أهم ما ميز هذه المرحلة هو ميل الأمة بحكم عوامل عديدة إلى تدوين العلوم والاشتغال بتدوين السنة وعلوم الفهم والتأويل، وقواعد الاستدلال والحجاج في الأصول والفروع.

- مرحلة الازدهار:

تمثل هذه المرحلة مرحلة الإبداع الإسلامي وبروز الجهود الكبرى للأمة في خدمة القرآن الكريم والسنة وعلومهما، غير أنه لم يبرز مع ذلك اهتمام كبير وواضح في موضوع السنن الإلهية إلا ما ورد من قضايا متفرقة في علوم كثيرة كعلم الكلام وعلم أصول الفقه وعلم السلوك والأخلاق، والسياسة الشرعية والآداب السلطانية تحتاج كلها إلى جهود كبيرة لجمع متفرقها وتحقيقه وتوثيقه وتنسيقه واستنباط ما يمكن أن يخدم البحث في السنن الكونية والاجتماعية.

ففي علم الكلام مثلا وجدنا حديثا عن الفعل الإلهي (الوعد والوعيد والعدل الإلهي) والفعل الإنساني العدل والظلم وحكم مرتكب الكبيرة والأمر والنهي، كما وجدنا اهتماما بمفهوم السببية والعلية.

وفي علم الأصول كان للعلماء حديث عن قواعد التكليف ومقاصد الشارع والعلة والشرط والسببية، مما يمكن أن يستفاد منه في استخراج كثير من القواعد المتعلقة بفقه السنن وتطبيقاتها.

وفي علم السلوك والتزكية وجدنا قواعد كثيرة عن طبائع النفس والسلوك والمعاملة وكيفية تغييرها وتهذيبها فنجد الغزالي يقول مثلا:"وأما القسم المحمود غاية الاستقصاء فهو العلم بالله وبصفاته وبأفعاله، وسننه في خلقه وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا، فإن هذا علم مطلوب لذاته وللتوصل به إلى سعادة الآخرة وبذل المقدور فيه إلى أقصى الجهد قصور عن حد الواجب" (إحياء علوم الدين: 39/1)

وفي علم التفسير وجدنا المفسرين يقفون عند الآيات المتعلقة بلفظ سنة الله وسنن الأولين لتعريفها وبيان بعض ما تضمنته من قواعد وقوانين فعل الله في إنجاء المؤمنين واتباع الرسل والعمل بالحق، وفي إهلاك الظالمين والطغاة والمكذبين والصدود عن الحق والصد عنه، وسنن الدعوة والتبليغ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإصلاح والتغير والتطور وقوانين الفعل والعمل والجزاء خيرا وشرا وقوانين التدافع والاستخلاف وغير ذلك من السنن.

وفي مجال السياسة الشرعية وجدنا أيضا أمورا كثيرة عن قواعد التدبير الاجتماعي وطبائع النفوس والتدافع بين الحق والباطل، العدل والظلم والأخلاق النافعة والأخلاق المهلكة والمردية (مثل كتاب نصيحة الملوك للماوردي، وكتاب ابن رضوان)

غير أن الملاحظة الكبيرة التي يمكن إبرازها في هذا المقام هو غياب تخصيص موضوع السنن الكونية والتاريخية بالبحث المتخصص والمتفرد.

- مرحلة الضعف والانهيار:

وقد مثلت هذه المرحلة عصر التقليد وتوقف حركة الاجتهاد، وعصر تراجع الأمة وانحسارها، وعصر تآكل الأمة من أطرافها ووقوعها فريسة الحملات الصليبية شرقا وغربا وسقوط الأندلس، وشيوع فكر الإرجاء والتواكل والإفراط في الاعتقاد بالكرامات والخرافة.

كل هذه العوامل المائلة نحو السلبية القصوى ولدت في الأمة حركة مضادة وانتفاضا على هذه الأوضاع السلبية، فوجدنا في هذه المرحلة الإرهاصات الأولى شبه ناضجة للحديث عن السنن الربانية في التاريخ والاجتماع البشريين. ويمكن رصد هذا عند ابن تيمية وعند تلميذه ابن قيم الجوزية والمقريزي وبشكل أبرز وأكثر نضجا عند ابن خلدون في كتاب المقدمة الذي وضعة مقدمة لكتابه "العبر وديوان المبتدأ والخبر"، ففي هذه المقدمة نجد التنبيه والتنصيص الواضح من ابن خلدون على السنن الإلهية في العمران البشري، وفي هذا السياق يمكن إيراد نماذج من ذلك:

- الاجتماع للإنسان ضروري
- أثر الهواء في ألوان البشر والكثير من أحوالهم.
- اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في أبدان البشر وأخلاقهم.
- أجيال البدو والحضر طبيعية.
- البدو أقدم من الحضر وسابق عليه.
- أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر.
- سكنى البدو لا يكون إلا للقبائل الوحشية أهل العصبية.

- العصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب أو ما في معناها
- الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك
- من عوائق الملك حصول الترف وانغماس القبيل في النعيم
- من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة وبالعكس
- الملك إذا ذهب عن بعض الشعوب من أمة فلابد من عوده إلى شعب آخر(سنة التداول)
- المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب
- الأمة إذا غُلبت وصارت في ملكة غيرها أسرع إليها الفناء
- الملك والدول العامة إنما تحصل بالقبيل والعصبية
- الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم.
- عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمدها على نسبة القائمين بها.
- الحضارة غاية العمران
- الصنائع لابد لها من العلم
- الصنائع تكسب صاحبها عقلا
- العلم من جملة الصنائع
- عالم الحوادث الفعلية إنما يتم بالفكر.
- العقل التجريبي إنما يتم بالتأمل في الوقائع وتتبعها واستنباط ما يلزم منها.
- العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة
- الإنسان جاهل بالذات عالم بالكسب

وغير هذا كثير، وكله يظهر عظمة العلامة ابن خلدون وتفطنه لأهمية السنن الإلهية في الاجتماع البشري وخضوع هذا الأخير لقوانين ثابتة وصارمة وعامة مثل قوانين عالم الطبيعة والكون، إلى جانب هذا فقد كان ابن خلدون كثير الاستشهاد بالآيات القرآنية التي تتضمن لفظ سنة الله، ومشتقاته أو الآيات المتضمنة لقوانين الله في خلقه، وسنن في الاجتماع البشري.

لكن على الرغم من أهمية ما توصل إليه العلامة ابن خلدون من قواعد وقوانين في العمران البشري إلا أن حركة الأمة توقفت من بعده أو كادت، ولم يظهر الاهتمام القوي بالسنن الإلهية إلا بعد ظهور المصلحين وأعلام النهضة والصحوة المعاصرة.

● مرحلة النهضة المعاصرة وجهود حركات الإصلاح والصحوة الإسلامية المباركة:

منذ فجر النهضة الإسلامية الحديثة تنبه كثير من روادها إلى أهمية السنن الربانية في استئناف الدور الحضاري للأمة و إعادة إحياء الأمة وتأهيلها للشهود الحضاري من جديد. ومن أبرز هؤلاء الرواد نجد الشيخ جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده والأستاذ رشيد رضا وسيد قطب ومالك بن نبي، وجودت سعيد ومحمد الغزالي، ومحمد باقر الصدر، ومحمد قطب، وخالص جلبي، والدكتور فريد الأنصاري، ويوسف القرضاوي، وجهود المعهد العالمي للفكر الإسلامي، وبسبب هذه الصحوة المباركة ومدارسها وبداية ظهور الوعي بالعمل المؤسسي والمدرسي اتسع الاهتمام بالسنن الربانية والإلهية في القرآن الكريم، وظهرت مؤلفات كثيرة لدراسة قضايا هذا المجال، وصار لها موطئ قدم في التخصصات الجامعية وأنجزت فيها بحوث ورسائل وأطاريح جامعية عديدة.

ويمكن القول هنا إن من بين أسس الصحوة الإسلامية المعاصرة هو قيامها على توظيف سنن الله والتعريف بها وإعمالها في حركة التدافع، وقد نبه على هذا الأستاذ الدكتور محمد السيسي حين جعل الإصلاح واحدا من أهم ركائز الحركة السلفية المعاصرة (مدرسة المنار) وجعل من أهم أسس هذا الإصلاح الاعتماد على السنن الإلهية في الكون والاجتماع (المدرسة السلفية في التفسير في العصر الحديث: محمد السيسي، دار السلام ــ القاهرة ومؤسسة مبدع ــ فاس،ط1، 1431ه/2010م)، ولقد غلب على اهتمام مفكري الصحوة الإسلامية المعاصرة الاهتمام بالسنن الإلهية في الأنفس والمجتمع والتاريخ.(ينظر لائحة المؤلفات في مجال السنن في آخر هذا البحث)

المحور الثالث:

من جانب بيان أنواعها ومواردها:

أولا – من جانب الكشف عن أنواعها

تمخض النظر الاجتهادي للمسلمين في مجال السنن الإلهية إلى تقسيمها إلى أنواع بحسب جهات اعتبار مختلفة:

* فمن جهة النسبة الإضافية: نجد سنن الله، سنن الرسل ، سنن الأولين صالحين وفاسدين. وقد سبقت الإشارة لذلك.

* ومن جهة مجالها: سنن كونية، وسنن إنسانية، وداخل كل نوع أقسام فرعية:

فالسنن الكونية يمكن تفريعها إلى أنواع بحسب تفرع العلوم الكونية ونضج البحث العلمي فيها.

والسنن الإنسانية والبشرية يمكن تفريعها إلى كل ما يتعلق بالإنسان في مختلف أبعاده النفسية والاجتماعية والتاريخية ..

وفي هذا السياق يقول الدكتور عز الدين توفيق:" السنة في القرآن الكريم إما سنة كونية أو سنة شرعية، فالأولى يسير عليها نظام الكون والأخرى يسير عليها نظام الشرع. واعتماد العلماء الطريقة العلمية في دراسة جميع

الظواهر النفسية والاجتماعية مبني على التسليم بأن الظواهر محكومة بسنن، فهناك سنن طبيعية وأخرى اجتماعية يخضع لها الإنسان بصورة صارمة. "[1]

وقد بدأ التوسع في الاهتمام بالبحث في مجال السنن الكونية ومجال السنن الإنسانية في النفس والمجتمع والتاريخ في الفكر الإسلامي المعاصر وفي حركة البحث العلمي والتأليف، غير أن جملة من العوائق لا تزال تعترض هذه المشاريع وتعيق جهود الأمة من الإثمار وهذه العوائق منها ما هو داخلي ومنا ما هو خارجي.

*ومن حيث التصريح والاستنباط: سنن مصرح بها منصوص عليها ، وسنن مستنبطة اجتهادية، وهذه الأخيرة يمكن تقسيمها إلى ما هو مستنبط مستخرج من الوحي، وإلى ما هو مكتشف في الواقع البشري عن طريق فقه الواقع بوساطة دراسة التجربة الإنسانية والبحوث الميدانية والتأمل في التاريخي والحاضر والمقارنة بين المجتمعات البشرية في صيرورتها التاريخية واكتشاف قوانين ذلك وعرضه على قوانين القرآن الكريم.

وفي سياق توسيع المسلمين لمجال خدمتهم للسنن الإلهية توسعت حركة البحث فيها لتشمل السنن الاجتهادية التي توصل إليها العقل البشري في مختلف الحضارات وبالأخص الحضارة الغربية، ويمكن هنا أن ندخل في العمل الاجتهادي جهود أسلمة العلوم الغربية في مجال العلوم الكونية والعلوم الإنسانية وتأصيلها أو استصلاحها على اختلاف في الاصطلاح وجهات الاعتبار فيه.

*من حيث الاطراد والاستثناء: سنن جارية مطردة، وسنن استثنائية (خرق العادة: المعجزات والكرامات)

ثانيا- من جانب الكشف عن مصادرها ومظانها ومواردها:

من معالم الجهود التي بذلها علماء الأمة في خدمة القرآن الكريم من خلال السنن القرآنية هو اهتمامهم بمحاولة الكشف عن مصادرها ومظانها الشرعية، وهنا نجد هذه الجهود انصرفت كلية إلى المصادر الأصلية للتشريع والتي هي القرآن الكريم، والسنة النبوية، والسيرة النبوية، والمصادر الاجتهادية: الكون المنظور، والدراسات الاجتماعية والتاريخية والنفسية ونتائجها.

* فعلى مستوى القرآن الكريم : اعتبر المسلمون هذا المصدر أول المصادر الشرعية المتضمنة لكل التوجيهات والهدايات الربانية للإنسان فهو كتاب هداية"هدى للمتقين"، "إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم"، وحاول علماء الأمة والراسخون في العلم باستمرار أن يستنبطوا منه الهدى المنهاجي الكفيل بإخراج الأمة الشاهدة القائدة الرائدة، ووفي مجال السنن الإلهية غلب على المسلمين البحث في القرآن الكريم أكثر من غيره، وتوجه إليه المسلمون بقصد توسيع دائرة الاجتهاد في فقه كتاب الله وشرعه فيما يخص السنن الكونية والبشرية.

---

[1] عز الدين توفيق،التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية، ص75.

* وفي مجال السنة النبوية: اهتم المسلمون منذ زمن النبي صلى الله عليه وسلم بسنة النبي عليه السلام وهديه في التعامل مع الوحي والواقع واستنباط منهجه صلى الله عليه وسلم في ذلك.

غير أن الذي غلب على المسلمين في الاهتمام بسنة رسول الله هو الجانب التشريعي المتعلق بالتكليف، لذلك فمهما اختلفت تعريفات السنة بين الفقهاء والمتكلمين والمحدثين فقد ظلت تدور على هذا المعنى المتعلق بأقوال النبي وأفعاله وتقريراته المتضمنة لتشريع وذلك لغلبة هذا الجانب على حركة المسلمين الأولى ورغبتهم في خدمة الدين عمليا.

ولما كانت السنة وحيا وبيانا للوحي فلم يكن ممكنا خدمة القرآن الكريم بالاقتصار عليه دون توسيع البحث عن البيان النبوي لمفهوم السنن كونية كانت أو إنسانية اجتماعية لأجل ذلك وجدنا كثيرا من المهتمين بمجال السنن صرفوا همتهم لاستخراجها من الحديث النبوي، وحددوا مظانها في أحاديث الفتن ، والقصص النبوي، والأمثال النبوية، والأحاديث النبوية الواردة في صيغ العموم، وجعلوها مجالا للكشف عن السنن الإلهية، وكذلك الأحاديث النبوية المتعلقة بالأمر والنهي والمعللة بالحكم والمقاصد والتوجيهات التربوية والإرشادية.

* وفي مجال السيرة النبوية عدت السيرة التطبيق الأمثل والنموذج الأكمل الذي سار عليه الرسول الكريم في فهم الدين أحكاما وتبليغا وهدايات، ويعتبر القرآن الكريم أول مصادر السيرة الموثقة توثيقا صحيحا، إذ كثير من أحداث السيرة ووقائعها ورد في القرآن الكريم لأغراض منها: توثيق حركة الدعوة، ونقل ما يفيد الأمة والإنسان من الأحداث، غير أن أهم مقصد من ذلك هو استثمار تلك الأحداث تربويا والتنبيه على قوانين الله ونواميسه في الاجتماع البشري والتدافع والبناء التربوي للإنسان وكيفية معالجة المشاكل والظواهر الاجتماعية (ظاهرة التنكيل بالمومنين، ظاهرة الهجرة، العلاقات، والتفاوض السياسي، العناد والتقليد للآباء، وظاهرة الرق والعبودية والتحرر، ظاهرة النفاق، ظاهرة الرأي العام، والدعاية ...) إضافة إلى الظواهر النفسية، والاقتصادية، والدينية....

وقد اهتم المسلمون مبكرا بالسيرة النبوية غير أن ذلك الاهتمام لم يرق إلى مستوى استخلاص السنن الربانية في مجال السيرة والهدي النبوي في ذلك، فقد كان تناول المسلمين لأحداث السيرة في غالبه تناولا تأريخيا قائما على تسجيل الأحداث والوقائع وسردها. و لم تظهر الجهود القائمة على فقه السيرة واستنباط الهدى المنهاجي في الدعوة والبناء والتبليغ ، وكيفية معالجة ظواهر الانحراف العقدي والسلوكي في المجتمع، سواء أكان انحرافا فرديا أم اجتماعيا إلا متأخرة ومن ذلك جهود ابن قيم الجوزية وجهود المعاصرين فكثرت الكتب التي تحمل عناوين فقه السيرة، والدراسات التي تتناول السيرة من زاوية الدراسة المصطلحية، ومن زاوية الدراسة الموضوعية، وبدأ يتكون لدى الأمة في المرحلة المعاصرة توجه في البحث يقوم على تجاوز السرد التاريخي للسيرة إلى فقه السيرة، وفقه التاريخ، والحضارة، واستنباط ما يتعلق بالإنسان الفرد والمجتمع والحضارة.

ومن الدراسات التي تناولت السنن الإلهية في السيرة دراسة الدكتور رشيد كهوس، أما الدراسات المصطلحية والموضوعية في هذا المجال فبدأت تشق طريقها إلى ميدان البحث العلمي في السيرة النبوية مثل:

- بيعة النساء في القرآن والسيرة: أحمد خليل جمعة
- دروس من غزوة أحد: عبد العزيز الكامل
- غزوة أحد دراسة دعوية: محمد عطية
- المجتمع الإسلامي في مرحلة التكوين: مصطفى علم الدين
- المجتمع المدني في عهد النبوة خصائصه وتنظيماته الأولى: أكرم ضياء العمري.
- من فقه التغيير ملامح من المنهج النبوي: عمر عبيد حسنه.
- المنهج الحركي للسيرة النبوية: منير محمد الغضبان.
- منهج النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة من خلال السيرة الصحيحة.
- الهجرة بين سنن الله الجارية وسننه الخارقة: الدكتور طه الدسوقي حبيشي.
- وقفات تربوية مع السيرة النبوية: أحمد فريد

وغير هذا من الدراسات التي كان غرضها تدقيق البحث في قضايا السيرة النبوية والارتقاء بالبحث فيها من مستوى السرد والرواية إلى مستوى الفقه والدراية، ومن مستوى الوصف إلى مستوى التحليل والتعليل والمقارنة والاستنباط والكشف عن قوانين حركة التاريخ والمجتمع.

وهو مستوى لا يزال في مراحله الأولى ويحتاج إلى جهود متنوعة ومتضافرة لا تكفي فيها البحوث الفردية المتفرقة ما لم تحتضنها معاهد البحث العلمي وتندرج في سياق العمل الجماعي والمؤسساتي.

* التاريخ والمجتمع البشري:

يعتبر التاريخ البشري بأحداثه وتفاعلاته مجالا خصبا لاستنباط قوانين الحضارة وسنن التغيير والتغير والتدافع والاستخلاف، لذلك وجه الله العباد إلى السير في الأرض والنظر في سير الأولين وأحوالهم:"أفلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، ولدار الاخرة خير للذين اتقوا"(يوسف 109)، وقوله تعالى :"أفلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، كانوا أشد منهم"(الروم:9، فاطر:44، غافر:21)، وقوله تعالى:"قل سيروا في الارض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين"(الأنعام:11)، وقوله جل وعلا:"قل سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين"(النمل:69)، وغير هذا من الآيات التي تحث على السير في الأرض وملاحظة سنن الله في العمران البشري وقوانينه في الثواب والعقاب والإنجاء والاستخلاف والإهلاك، وملاحظة الظواهر الاجتماعية وقوانينها: ظاهرة تكذيب الرسل، الصدود والصد عن منهج الله، المجاهرة بالمعاصي، الإجرام،

الطغيان، الاستكبار، التطفيف، الزنى، الفساد، الصلاح والإصلاح، النفاق، العمل، الأخذ بالأسباب، التدرج والإمهال، وراثة الأرض، التعمير.....

انطلاقا مما استفاده المسلمون من توجيهات القرآن الكريم بشأن قصص الماضين وسننه في الأمم الغابرة، نشّأ عند المسلمين الاهتمام بتاريخ الأمم والشعوب، كما نشأ الاهتمام بقضايا الإنسان في المجتمع وشؤونه السياسية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وقد تطور هذا الاهتمام منذ بداياته الأولى.

ففي علم التاريخ وإن كان الاهتمام بالتأريخ قد بدأ مبكرا في تاريخ المسلمين إلا أنه ظل يغلب عليه مظاهر عديدة من القصور منها:

- غلبة الاهتمام بتواريخ الأعلام والملوك والحروب دون بقية مكونات النظام الاجتماعي.
- غلبة النزعة السردية والحكائية على الأحداث والوقائع أو بتعبير آخر غلبة الرواية على الدراية وفقه سنن التاريخ والقوانين المحركة لعجلة التطور، النفسية والاجتماعية وتفاعلات مكونات النسيج الفردي و الاجتماعي وقوانينه.

ويستثنى من هذا بعض الجهود اللامعة في تاريخ المسلمين الفكري التي كانت في حاجة إلى مزيد تطوير وتكميل خاصة جهود ابن حزم وابن مسكويه والغزالي وابن تيمية وابن القيم، ويأتي على رأسهم وفي مقدمتهم جهود العلامة ابن خلدون في المقدمة الذي كشف عن كثير من قوانين التاريخ والمجتمع ونظمه وسنن التحول والتطور، فاستطاع أن يحقق أمرين هما:

- التخلص – بقدر كبير– من طرق القدماء في بحث الظواهر التاريخية والاجتماعية، إذ قصر القدامى كثيرا في البحث في السنن الكونية والاجتماعية ، وإن عالجوها فلم يكن ذلك إلا عرضا،
- التأسيس لمشروع علمي يقوم على منهج وقواعد البحث في فقه سنن التاريخ والعمران البشري وقوانينهما (الماضي والحاضر) على شاكلة ما فعله الإمام الشافعي في الرسالة في تأسيسه لقواعد فقه النص الشرعي.

كما لا يجب إغفال جهود فقه النوازل في الكشف عن كثير من جوانب المجتمع وظواهره السياسية والاقتصادية والدينية والقضائية والتعليمية ونظمها ومشاكلها وطرق حلها وتدبيرها، غير أن هذه الدراسات جاءت عرضا وبالتبع، و لم يكن قصدها الأصلي دراسة واقع الأمة والكشف عن قوانينه وسننه وفق الهدى المنهاجي للوحي القرآني والنبوي، ولذلك فهذه الجهود على أهميتها فهي تحتاج إلى جهود كبيرة لجمع شتاها أولا وتنسيقها وتحقيقها واستنباط قوانين المجتمع والتاريخ منها الخاص منها والعام بقصد إخراجها لحيز الوجود والاستفادة منه في البحث العلمي والحياة العملية.

ونفس الأمر يمكن تسجيله بالنسبة للوقائع الاجتماعية والنفسية حيث ارتبط الاهتمام بها من جهات اعتبار متعددة منها:

– ارتباط الحديث عنها بالفقه واستنباط الأحكام الشرعية من النصوص الشرعية المتعلقة بالسلوك الإنساني، وقل الاهتمام بدراسة الحالات الواقعية واكتشاف القوانين المتحكمة في السلوك الإنساني الفردي والاجتماعي من حيث دوافعه ومصادره وتفاعلاته وآثاره، وهنا لا يجب إغفال جهود علماء الأخلاق والسلوك في الكشف عن كثير من هذه الجوانب إلا أنها جهود أصابها الانحسار مع توقف حركة الاجتهاد في الأمة وتوقف البحث العلمي ومؤسساته وانحراف ذلك إلى الإغراق في الاهتمام بالجانب الصوفي في بعده المجرد وفي بعده المنحرف عن التوجيهات القرآنية، ولو نضجت تلك الجهود وسارت في الاتجاه القرآني لكان للمسلمين شأن أقوى في مجال الدراسات النفسية والاجتماعية والتاريخية.

– تأثر الأبحاث في المجال الأخلاقي والسياسي والاجتماعي بنظريات فلسفية يونانية انشغل المسلمون كثيرا بالتوفيق بينها وبين ما جاء به الشرع الحكيم، مما أسهم في صرف جهود وطاقات المسلمين في غير ما كان لهم أن يصرفوا جهدهم فيه وهو فقه الشرع وفقه الواقع وفقه التنزيل ووسائل ذلك وإجراءاته وقوانينه.

– أن البحث في السنن الإلهية غالبا ما كان يرتبط في تاريخ الأمة بمرحلة الأزمة ومحاولة مقاومة السقوط: ابن حزم في الأندلس في عصر ملوك الطوائف، وابن تيمية في عصر الغزو التتري ومقاومة ضعف الأمة وسقوطها وانحراف الأمة إلى الأفكار والمعتقدات والسلوكات السلبية (طغيان الفكر الفلسفي والإشراقي والصوفي ...)، وابن خلدون سقوط الحضارة الإسلامية في الأندلس والحملات الصليبية على الغرب الإسلامي، وفي المرحلة المعاصرة مقاومة الضعف ومحاولة النهوض بسبب الصدام مع الغرب والرغبة في مواجهته وإثبات الذات واستعادة الأمة لدورها ورسالتها الربانية.

ولذلك فالمطلوب اليوم تأسيس البحوث والدراسات الإنسانية بمختلف تخصصاتها على الجهود النظرية والميدانية لواقع المسلمين مع الاستفادة من التجربة الغربية فيما لا يصادم ولا يعارض التصور الإسلامي.

المحور الرابع:

من جانب بيان صيغها :

يعتبر البحث في صيغ وأساليب الوحي القرآني والنبوي في عرض السنن الربانية وطرق الكشف عنها واحدا من أهم الموضوعات التي اهتم بها المسلمون في تقعيدهم لهذا العلم الخادم للوحي ولحاكميته في الإنسان تفكيرا وتعبيرا وتدبيرا، أفرادا وجماعات، وأمما وشعوبا، ماضيا وحاضرا ومستقبلا.

ومن وسائل الكشف عن السنن الكونية والإنسانية في القرآن الكريم والسنة:

- جمع كل ما يتعلق بلفظ السنة في القرآن والسنة وما يرادفها ودراسته دراسة مصطلحية ومفهومية: مثل لفظ سنة الله ، وسنة(سنن) الأولين، سنة المرسلين، كلمة (كلمات) الله، المشيئة والإرادة الإلهية، وما ورد من ألفاظ تدل على فعل الله الكوني والشرعي، نحو: أراد، أمر، كتب، آتى، جعل ، حكم، بعث، أرسل، حرم، قدر، أهلك ، أنجى. هدى، أضل، عذب، جزى/ جازى(مجموع الفتاوى:ابن تيمية58/8)
- أسلوب التعليل، والشرط والتعليق بسبب معين أو بشرط، أو ترتيب الجزاء بطبيعة الفعل البشري، والتعليل بالوصف والحال.
- وورود ألفاظ مشعرة بذلك مثل لفظ "كم"، و"كأين"، و"كذلك" في سياق قصة أو حكم الله.
- أسلوب التعميم وصيغ العموم والاستثناء.
- فعل الكينونة المنفي: وما كان ربك...، ما يكون، وما في معناه
- أسلوب الاستفهام الإنكاري
- أسلوب التعقيب بعد ذكر حوادث كونية أو أفعال بشرية والتعقيب عليها بذكر صفاته تعالى وأفعاله، نحو: "وكان الله سميعا بصيرا"، " والله خبير بما يعملون، بما يصنعون،بما كانوا يفعلون، ....، أو التعقيب عليها بأفعال البشر، لعلكم تعقلون، أفلا تعقلون، إن كنتم تعقلون، إن كنتم تعلمون، وقليل عبادي الشكور، وما يعقلها إلا العالمون....لقوم يعقلون، وأكثرهم لا يعقلون.

وعلى هذا يحتاج الباحث في السنن الإلهية الوقوف على كل القرآن الكريم في كلياته وجزئياته وفي كل صيغه الاسمية والفعلية وتراكيبه.

المحور الخامس:

من جانب الكشف عن خصائصها:

ساعد البحث في سنن الله انطلاقا من القرآن الكريم والسنة والعلوم الخادمة لهما في تحديد خصائصها القابلة للانضباط والتحديد العلمي الدقيق، وقد سبقت الإشارة في التعريف اللغوي تضمن هذه التعاريف لخصائص السنة بمعناه اللغوي، وقد تم استصحاب هذا المعاني والخصائص في التعريف الاصطلاحي عند البحث عن سنن الله في الوحي، وأهمها:

- الثبات: قال تعالى : (سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً)[7]. وقال تعالى : (فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً)[1].

---

[7] ـ سورة الأحزاب ، الآية 62 .

– الاطراد: ومعنى اطرادها جريانها على وتيرة متتابعة على نسق واحد لا تتخلف، ويدل على اطرادها أن الله تعالى قصّ علينا قصص الأمم السابقة وما حلّ بها لنتعظ ونعتبر ولا نفعل فعلهم لئلا يصيبنا ما أصابهم، ولولا اطرادها لما أمكن الاتعاظ والاعتبار بها . فمن هذه الآيات قوله تعالى : (فاعتبروا يا أولي الأبصار) بعد أن قصّ الله تعالى علينا ما حلّ ببني النضير لسوء أعمالهم، قال الآلوسي في هذه الآية: أي فاتعظوا بما جرى عليهم ـــ أي على اليهود من بني النضيرـــ من الأمور الهائلة على وجه لا تكاد تهتدي إليه الأفكار، اتقوا مباشرة ما أداهم إليه من الكفر والمعاصي، واعتبروا من حالهم في غدرهم واعتمادهم على غير الله تعالى الصائرة سبباً لتخريب بيوتهم بأيديهم وأيدي أعدائهم ومفارقة أوطانهم كارهين. إلى حال أنفسكم فلا تعولوا على تعاضد الأسباب وتعتمدوا على غيره عزّ وجلّ بل توكلوا عليه[2] . وكذلك قوله تعالى : (قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ {137} هَـــذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ)[3] .

– العموم: أي أنها عامة يسري حكمها على الجميع دون محاباة ولا تمييز، قال تعالى: (أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءةٌ فِي الزُّبُرِ)، (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ)[4]. أي ليس كفاركم خيراً من كفار من تقدم من الأمم الذين أهلكوا بكفرهم[5].

وقال تعالى : (لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ)[6] ، والمعنى أن كل من يعمل سوءاً يلق جزاءه؛ لأن الجزاء بحسب سنّة الله تعالى أثر طبيعي للعمل لا يتخلف عنه[7]. فسنّة الله تعالى ثابتة ومطردة وعامة غير مقتصرة على فرد دون فرد ولا على قوم دون قوم. ولولا ثباتها واطرادها وعمومها لما كان معنى في ذكر قصص وأخبار الأمم السابقة وطلب الاعتبار بما حل بهم ، ولكن لما كان ما جرى لهم وعليهم يجري على غيرهم إذا فعلوا فعلهم، حسن ذكر قصصهم وطلب الاعتبار والاتعاظ بها. (سنن الله في الأمم والجماعات والأفراد: عبد الكريم ويدان)

وهنا يمكن تسجيل بعض الملاحظات أهمها بأن:

أغلب الدراسات التي تناولت خدمة القرآن الكريم والسنة النبوية من خلال موضوع السنن الإلهية حرصت على إبراز خصائصها وصفاتها المنضبطة، والذين تناولوا هذا الأمر منهم الموسع والمكثر من ذكر هذه الخصائص، ومنهم المضيق والمقل.

---

[1] ـ سورة فاطر ، الآية 43 .
[2] ـ تفسير الآلوسي ـ روح المعاني ـ ج28 ، ص 41 .
[3] ـ سورة آل عمران ، الآيتان 137 ، 138 .
[4] ـ سورة القمر ، الآيتان 43 ، 51 .
[5] ـ تفسير القرطبي ، ج15 ، ص 145 .
[6] ـ سورة النساء ، الآية 123 .
[7] ـ تفسير المنار ، ج5 ، ص 434 .

فمن ضيق مجالها وقلل من عددها ذكر منها خاصية الثبات، وخاصية الاطراد، وخاصية العموم والشمول. وهذا اتجاه غالب الدارسين.

وهناك من وسع وكثر من عددها وأضاف إليها: الربانية، الحاكمية (مفهوم السنن الإلهية في الفكر الإسلامي: السيد محمد رشيد رضا نموذجا، ص: 116-117)، وهناك من أضاف إلى هذا خاصية الواقعية، والتوازن، والوسطية، والأجل ومبدأ الاستمرارية(السنن الإلهية في السيرة النبوية: رشيد كهوس) كما أضاف إليها رشيد كهوس ما سماه مميزات وخصائص،ومواصفات السنن الإلهية وجمعها في أربع، هي : الصدق ، والعدل، والعلو والرفعة، والقول الفصل.

ولعل السبب في تكثير هذه المواصفات هو أنها لما كانت قرآنية كانت متصفة بما يتصف به القرآن الكريم، ومتسمة بسماته(السنن الإلهية في السيرة النبوية: ص112)

المحور السادس:

قضايا وإشكالات في مسألة السنن الإلهية:

أثار البحث في السنن الإلهية مجموعة من الإشكالات توحي بها أولا دلالات لفظ السنة في مستواها اللغوي ومستواها الاستعمالي في القرآن الكريم، وقادت إليها حاجة البحث العلمي في قضايا القرآن الكريم ومشكلات الأمة من جهة ثانية. ومن أبرز هذه الإشكالات: ما موقع القول بالصدفة بجانب القول بالسنن الإلهية وقوانينه؟ وما علاقة القول بالسنن بالقول بالحتمية والجبرية؟ هل يؤدي القول بالسنن الإلهية إلى نفي القول بالجبرية والإرجاء؟ كيف يساعد القول بالسنن في تجاوز كثير من إشكالات الفكر الإسلامي القديم في القول بالجبر والإرجاء ونفي مسؤولية الإنسان عن أفعاله ونفي السببية والإفراط في القول بخوارق العادة؟ وأي دور لفقه السنن في إخراج الأمة من ضعفها وتجديد بعثتها وتأهيلها لاكتساب علوم التسخير والتدبير؟

-السنن الإلهية والصدفة: إن السنن الإلهية ما دامت قوانين الله ونواميسه الثابتة التي تتسم بالثبات والاطراد والعموم، فإن من شأن الوقوف عندها والتحقق منها في كل فعل أن يجنب المسلم القول بالعبثية والصدفة لأن كل شيء له قوانينه الثابتة وأسبابه وموجباته علمنا ذلك أم لم نعلمه، لذلك فالعلم بهذه السنن يعمق الإيمان بالله ويقوي اليقين في نفي الصدفة والعبثية والعشوائية ويساعد في تنظيم الكون والحياة.

- السنن الإلهية بين إثبات القدر وإثبات حرية الإنسان ومسؤوليته: شكلت مسألة القدر في الفكر الإسلامي الكلامي واحدة من أعوص المشكلات، وصورة المسألة هي: من هو الفاعل الحقيقي ؟ الله أم الإنسان؟ وما حدود

تدخل الله في تدبير الكون والحياة؟ وهل الإنسان فاعل حر ومسؤول عن أفعاله أم أنه مسير وخاضع للقدر والإرادة الإلهية؟

وقد استهلكت هذه المشكلات جهود المسلمين واستترفت كثيرا من طاقاتهم، خاصة لما اصطبغ بالبعد السياسي والمذهبي، وتقلبت الأنظار بين الإفراط والتفريط، وغدا القرآن الكريم مورد الجميع للبحث فيه عن حل لهذه المشكلات، وتأثرت الدراسات القرآنية في هذا المجال بالتوجيه المذهبي وغلبة الترعة الذاتية والمذهبية في التعامل مع القرآن مما فوت الفرصة على المسلمين في التعامل مع الوحي بتجرد وموضوعية والكشف عن سنن الله التكوينية والتكليفية بعيدا عن أي تحيز مذهبي.

– ولهذا فيمكن للدراسات في مجال السنن الكونية والاجتماعية إذا تخلصت من عيوب الدراسات القديمة في مسألة القدر أن تساعد في حل كثير من المشكلات العقدية التي عانى منها الفكر الإسلامي قديما وستساعد الباحثين في هذا المجال من التخلص من التوجيه المذهبي في التعامل مع قضايا الإنسان والمجتمع من جهة، ومع قضايا الوحي من جهة أخرى، وتأسيس رؤية علمية رصينة في هذا المجال.

– السنن الإلهية وأثرها في التأسيس للعلوم الكونية والإنسانية: كان للعيوب السابقة التي اكتنفت الدراسات في مجال الوحي والواقع والتاريخ من قبيل غلبة الفقه بمعناه الضيق وهيمنة التوجيه المذهبي، وازدياد تأثير الفلسفة اليونانية في نزعتها الصورية المجردة، وانتشار كثير من التصورات والتصرفات السلبية والفهوم الخاطئة للتصوف وحركة الإنسان وفعله وفعل الله جل وعلا أثره الكبير في ضمور البحث العلمي الرصين في مجال السنن الإلهية الكونية والإنسانية. وقد أعاقت هذه العيوب انطلاق مشروعات البحث العلمي في مجال العلوم الكونية والعلوم الإنسانية كثيرا.

– السنن الإلهية ومسألة التداول الحضاري: بعد السقوط الحضاري للمسلمين وصعود نجم الحضارة الغربية الحديثة والمعاصرة، استفاق المسلمون على هول الصدمة الغربية التي جرت معها نكبات الغزو والاستعمار والاحتلال العسكري والثقافي، وأدرك المسلمون حجم التفاوت الحضاري بين المنطقة العربية الإسلامية والغرب. فكان لذلك أثر خطير في نفسية كثير من أبناء الأمة، فكان من مظاهره الانبهار بالفكر والحضارة الغربية والاستلاب والهزيمة الفكرية والنفسية أمام المنتج الحضاري الغربي، فسبب ذلك انتشار أفكار اليأس والتيئيس من اللحاق بالغرب بله سبقه.

غير أن عودة كثير من المصلحين والعلماء المسلمين المحدثين إلى القراءة الواعية للقرآن الكريم واستنباط هداه واستنباط فقهه في تجدد الأمم وسقوطها انطلاقا من السنن الإلهية المبثوثة في القرآن الكريم وسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم وسيرته مكن من تجديد وعي الأمة بذاتها وبقدراتها في إعادة استئناف المسيرة الحضارية من جديد، وشروط ذلك الاستئناف ومنطلقاته وأسبابه ووسائله. ورغم أن الدارس يلحظ اختلافا في تحديد منطلقات التجديد

والاستئناف الحضاري إلا أن هذا الاختلاف يخفي وراءه الإجماع على أن هذا الاستئناف ممكن لكل أمة فقهت حركة التاريخ وقوانينه وعملت بها أفرادا وجماعات، وقد عُبر عن هذا الأمر بفقه التداول الحضاري وسننه، ومن أبرز الأعمال الفكرية التي قامت على إرساء هذا الفقه مدرسة المنار وكتابات سيد قطب والأستاذ الشاهد البوشيخي والأستاذ المرحوم فريد الأنصاري وغيرهم من علماء الأمة مشرقا ومغربا...

المحورالسابع:

من جانب بيان أهميتها ووظائفها ووجه الحكمة منها:

انطلاقا من المحور السابق الذي عرض لبعض الإشكالات التي يثيرها البحث في فقه السنن ويحاول إيجاد أجوبة دقيقة لها، حاول العلماء بيان أهمية البحث في السنن الإلهية وبيان مختلف وظائفها والحكمة من ورودها في القرآن الكريم والإرشاد إلى فقهها والعمل بمقتضاها كما بينوا أهمية هذه السنن وحكمها وحجيتها، فمن حيث حكمها ذكر غير واحد أن طلبها ومعرفتها أمر واجب، فهذا السيد رشيد رضا يقول: "إن إرشاد الله إيانا إلى أن له في خلقه سننا يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علما من العلوم لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه، فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون فيها قوم يبينون لها سنن الله في خلقه، كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون التي أرشد إليها القرآن بالإجمال"(تفسير المنار: 139/4)، بل إن رشيد رضا يعتبر العلم بسنن الله من أهم العلوم وآكدها، ويأتي في الرتبة بعد العلم بالله تعالى وصفاته، وقبل علوم البيان (كالكلام والفقه والأصول).

وهذا الشيخ عبد الكريم زيدان يقول أيضا: "وسنن الله تعالى التي بيّنها الله في القرآن الكريم أو بيّنها الرسول صلى الله عليه وسلم جديرة بالدراسة والفهم، بل إن دراستها وفهمها من الأمور المهمة جداً والواجبة ديانة، لأن معرفتها معرفة لبعض الدين قال تعالى: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ)[10].

قال الآلوسي رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية:((والمراد من (كُلِّ شَيْءٍ) ما يتعلق بأمور الدين أي بياناً بليغاً لكل شيء يتعلق بذلك، ومن جملته أحوال الأمم مع أنبيائهم))[11] . . فيتحصل من ذلك أن معرفة سنن الله جزء من معرفة الدين أو معرفة لجزء من الدين، وأن هذه المعرفة ضرورية، ومن الواجبات الدينية لأنها تبصرنا بكيفية السلوك الصحيح في الحياة حتى لا نقع في الخطأ والعثار والغرور والأماني الكاذبة، وبذلك ننجو ممّا حذّرنا الله منه، ونظفر بما وعد الله به عباده المؤمنين المتقين.

وهنا يمكن أن نلحظ أهمية هذه السنن في جانبين كبيرين:جانب الجلب وجانب الدفع:

---

[10] ـ سورة النحل ، الآية 89 .

[11] ـ تفسير الألوسي ، ج14 ، ص 214 .

أولا - في جانب الدفع تصلح السنن الكونية والإنسانية في تجاوز مشكلات الفكر الإسلامي القديمة (مشكلة الإرجاء، مشكلة نفي السببية، الإفراط في التواكل ونفي مسؤولية الإنسان أو العكس، ومشكلة القول بالصدفة، ونفي القدر)، إذ عانى الفكر الإسلامي منذ تأسيسه من مثل هذه المشكلات التي كانت سببا في عقم المسيرة الإسلامية فيما بعد، وكانت عاملا من عوامل شيوع السلبية والتواكل والتراجع الحضاري للأمة وعلى رأس هذه المشاكل مشكلة الإرجاء، وأن الإيمان يكفي فيه القول ولو تخلف عنه العمل، والإفراط في إنكار السببية والقول بخرق العادة حتى شمل ذلك القول بالكرامات والتوسع فيها إلى حدود واسعة عطلت العقل وألغت العمل وقللت من فاعلية الإنسان وقدرته على الفعل وحريته فيه، فكان ذلك سببا جر على الأمة مظاهر سلبية كبيرة وكثيرة، انعكست في التخلف وحرمان الله لها من الريادة والشهادة على الناس ومعاقبتها بتسليط أعدائها عليها.

ولو أن المفكرين القدامى حكموا السنن الإلهية لأمكنهم الخروج من هذه الإشكالات وتجاوزها والحفاظ على قوة الأمة. ولكنه أيضا قانون الله في الابتلاء والتمحيص والاختلاف والتداول.

وفي عصرنا الحاضر انطلقت حركات التجديد والإصلاح باحثة عن أسباب سقوط المسلمين وتراجعهم وتسلط الأعداء عليهم، وكان سؤال "لماذا تخلف المسلمون وتقدم غيرهم؟" منطلقا للكشف عن هذه المعضلة.

وكان مما تبين أنه واحد من الأسباب هو الجهل بالسنن الربانية في الكون وفي التاريخ والاجتماع البشري. وانطلقت جهود المفكرين والمصلحين في دراسة القرآن الكريم والكشف عن القوانين الناظمة لحركة التاريخ وتطور المجتمعات وتداول الحضارات التي أرشد الله عز وجل عباده إلى السير وفقها.

ثانيا- في جانب الجلب يفيد البحث في السنن الإلهية وفقهها وتتريلها في تحقيق جملة فوائد وجلب عدد من المصالح علمية وعملية:

ففي الجانب العلمي توصل العلماء إلى أن من وظائف السنن الإلهية توجيه الأمة إلى البحث العلمي في مجالين كبيرين هما:

أ- مجال العلوم الكونية القمنة بتحقيق الريادة والردع وتسخير الكون في ما يساعد الإنسان على الاستخلاف في الأرض ماديا، كما يساعد البحث في السنن الكونية في انطلاق السير في البحث العلمي الدقيق في العلوم المادية، واكتشاف جوانب الإعجاز العلمي في القرآن الكريم وتقوية جانب التدين والإيمان عن بينة وعلم، والإسهام في نشر الدعوة الإسلامية وتوسيع آفاقها عالميا للقيام بوظيفة الإنقاذ والإصلاح الموكولة للأمة الخاتمة بإدخال الناس في جميعا في رحمة الله تعالى.

ب- مجال العلوم الإنسانية التي هي علوم التدبير وتنظيم الاجتماع البشري ويساعد البحث فيها في إخراج الأمة العابدة الشاهدة، الصالحة المصلحة المؤهلة للاستخلاف، والتفقه في كل ما يجلب لها المصالح ويبعد عنها المفاسد

بإنجاز دراسات تؤسس لفقه السنن البشرية في المجال النفسي والاجتماعي والتاريخي والسياسي والاقتصادي والتربوي... من شأنها أن تساعد المسلمين في المرحلة المعاصرة والقادمة من التخلص من عقدة الغرب وغزوه الفكري في هذه المجالات بما جعل ثقافته تغزو وتسود وثقافة المسلمين الشرعية تنمحي وتبيد، وجعل البحث العلمي في مجال العلوم الإنسانية والتدبير يعيش حالة الاغتراب ومصادمة أصول الأمة ومقوماتها الذاتية، ويتجه نحو خدمة الفكر الغربي والتحيز لصالحه لا صالح الحقيقة والصواب.

وفي المجال العملي يمكن أن تفيد في :

- تأهيل العنصر البشري وتنمية قدرات الفرد ومساعدته على استثمار مواهبه وطاقاته:

وذلك بتمكين المجتمع المسلم من الاستفادة من طاقاته البشرية الخاملة بسبب شيوع ثقافات التواكل والكسل والخمول وعقدة التفوق الغربي وعقدة التقليد، إذ من شأن الفقه في علم السنن الكشف عن قوانين العمل والفعل الإنساني والكشف عن طاقاته وإمكاناته والتعرف عن تجارب السابقين ومعرفة دوره وواجبه الفردي والاجتماعي تجاه الأمة، فتجارب الأنبياء وأتباعهم هي مختبر تربوي ومدرسة للتنمية البشرية وتخريج الرجال الرواحل، وتنمية المواهب واستثمارها في خدمة العمران البشري، وصناعة القادة والكفاءات المؤهلة للمشاركة إيجابيا في الحياة الاجتماعية بكل ما تحتاج إليه الأمة.

- تجديد الدين والتدين، وترشيد العمل الدعوي الإسلامي:

ساعدت حركة البحث في السنن القرآنية في تجديد وعي المسلم المعاصر بذاته الحضارية وتعزيز إحساسه بانتمائه التاريخي، وقاد ذلك إلى تنشيط حركة البحث في إمكانات بعث الأمة وتجديد التدين في المجتمع، وتقوية الاستمساك بالدين في النفس والمجتمع. لذلك حاولت حركات الإصلاح والبعث الإسلامي المعاصر التركيز على أهمية السنن القرآنية في استعادة الأمة لوعيها الحضاري، ودور الفاعلية الإنسانية. وقد ظهر هذا جليا في جهود الصحوة الإسلامية المعاصرة التي حاولت تجديد الدين انطلاقا من تجديد النظر للقرآن الكريم ومفاهيمه وقضاياها وتجديد التعامل مع الواقع بفقه قرآني خاصة مفهوم السنن الربانية ومقاصد القرآن الكريم وقواعده وفقه هداه المنهاجي في التربية والدعوة.

وفي التنبيه إلى أهمية فقه السنن ودعوة الأمة إلى الاهتمام بها يرى الشيخ محمد الغزالي أنها تقيم الدين وتحفظ الأمة وتحصنها من الضياع والفناء والإهلاك، وترسخ التدين، وتطهر النفوس وتزكي الأخلاق وتصلح المجتمعات، أما الانكفاء عنها فيؤدي إلى ضياع الدين والدنيا، وانتهى إلى أن الاهتمام بها أولى من الاهتمام بفقه الفروع الذي غلب على الأمة قرونا(سر تأخر العرب والمسلمين: ص32-33).

كما بين الدكتور عمر عبيد حسنة أهمية العلم بهذه السنن في التجديد الحضاري وإعادة بعث الأمة وبين أن المنهج السنني يشكل سبيل الخروج والانعتاق من وهدة التخلف، واسترداد الفاعلية، وبعث روح الأمة من جديد، ومعاودة إخراجها واكتشاف أفق حضاري متجدد وجديد ، وبذلك نضطلع بمهمة التجديد التي خلقنا الله بها"(المنهج السنن أفق حضاري متجدد: عمر عبيد حسنه، ص11).

وفي نفس السياق أكد غير واحد من الدارسين على أهمية دراسة السنن الكونية وتوظيفها في التربية والتوجيه لتعلقها بذلك أصالة ومنهم الدكتور حسين شرفة الذي لخصها في:

*تقوية الإيمان وترسيخ العقيدة، وتثبيت دعائم الإيمان بالله، واليوم الآخر.

*إخراج المسلم من العبثية وجعله أكثر إيجابية وأكثر عطاء، وأكثر تأهلا للخلافة والإعمار.

*شرط التربية الصحيحة التي من شأنها أن تنشئ الإنسان الصالح والمصلح لكونها تمكن من تنمية طاقات الإنسان وتوجيهها في الخير وتجنب تعطيلها أو توظيفها في الشر.

*شرط أساس لتحقيق الشهود الحضاري: بتوجيه الإنسان لكيفية تسخير طاقته ومقدرات الكون في خدمة الإنسان والارتقاء به نحو الشهود الحضاري.

أما المرحوم الدكتور فريد الأنصاري فكان يرى في مشروعه "الفطرية" أن بعثة التجديد المقبلة للأمة ينبغي أن تتأسس على أسس ثلاثة هي منطلقاتها وثوابتها، وهذه الثوابت هي

أولا: انطلاق الأمة في كل شيء من شؤونها من القرآن الكريم عبر إشاعة تداوله اجتماعيا بمنهج التدارس ومجالسه وتصحيح التصور والسلوك انطلاقا من كلمات الله، وإعداد العلماء الربانيين(الإمامة العلمية)، ونهج التيسير في الدعوة والبلاغ والتبليغ، والتنظيم الفطري.

ثانيا: تأسيس العمران البشري انطلاقا من تثبيت أركان أربعة في ترابطها وتناسقها: التوحيد والعبادة والمجتمع وفقه الدين وعلومه وتيسر تداولها خاصة علوم التراث وعلم أصول الفقه ببعده المقاصدي وأصول الفقه السياسي(السياسة الشرعية)

وتكمن قيمة مشروع الأستاذ فريد في ربطه حركة الفرد والمجتمع بالعودة إلى الوحي وفقهه للعمل به، كما تكمن في كونه جمع بين التصور النظري والممارسة العلمية والتربوية في فقه السنن الإلهية في العمران البشري لأن هذا الأخير إنما هو بناء الإنسان بما هو عقيدة وثقافة، وبما هو حضارة وتاريخ، وبما هو فكر ووجدان، وبما هو نفس ونسيج اجتماعي" والقرآن الكريم تضمن نظرية متكاملة وناجعة في العمران البشري لذلك فلا عمران صحيح إلا العمران القرآني الذي له قضايا رئيسية في بناء النفس والمجتمع... تمثل اللبنات الكبرى في بناء البعثة المحمدية وعمارتها عليها كانت تدور أولوياتها..وهي :

التوحيد بما هو إخلاص، والعبادة بما هي شعائر، والمجتمع بما هو علاقات ومؤسسات، ثم علم الدين بما هو إطار للتجديد والاستمرار" (الفطرية:بعثة التجديد المقبلة من الحركة الإسلامية إلى دعوة الإسلام: فريد الأنصاري، الفصل الثالث، وكتاب مفهوم العالِمية له أيضا)

وهكذا لوحظ عودة الشباب إلى الدين بفهم جديد يقوم على فقه قوانين الاجتماع والتدافع والعمل والعلم ووجدنا في هذا السياق كثيرا من البحوث في فقه التربية والدعوة تؤسس عملها على السنن القرآنية. ومن ذلك كتابات مدرسة المنار وتلاميذها، وكثير من الزعماء والمصلحين من أبناء الأمة المسلمة المعاصرة أمثال سيد قطب، ومحمد الغزالي (خاصة كتابه: سر تأخر العرب والمسلمين)، ويوسف القرضاوي، وخالص جلبي (ظاهرة المحنة: محاولة لدراسة سننية)، وجهود المعهد العالمي للفكر الإسلامي العلمية ومنشوراته التي حاولت المضي في مشروع أسلمة العلوم الإنسانية والاجتماعية. وتأسيس البحث العلمي فيها انطلاقا من تجديد القراءة في الكتاب المسطور والكتاب المنظور والجمع بين القراءتين.

المحور الثامن

نماذج من السنن الإلهية في القرآن الكريم

سعت حركة البحث العلمي في مجال السنن الإلهية إلى الجمع بين التصور النظري والتعبدي وبين الجانب التطبيقي والتمثيلي القائم على محاولة البحث في القرآن الكريم والسنة والسيرة لاكتشاف هذه السنن ودراستها من حيث التعريف بها وجمع ما يتعلق بها من نصوص والكشف عن خصائصها وأبعادها استثناءاتها، ومن أهم السنن التي تمت العناية بها نذكر ما يلي:

- سنن الله في إحياء الأمم وإهلاكها: كسنة الإيمان، والكفر والشرك،والإخلاص والنفاق، والعمل الصالح والفاسد، والعبودية والاستكبار، والعدل والظلم، والفقر والغنى، التقوى والتعدي، وسنة الاستخلاف،...
- سنن الله في الهداية والضلال، وسنن التكذيب والتصديق، وسنن الابتلاء والتمحيص، وسنن الأخذ بالأسباب والمسببات، والإعداد والتدرج، وسنة مراعاة الأولويات،.....
- سنن التدافع بين الحق والباطل، والاستدراج، والإمهال، والأخذ والإهلاك والإنجاء، والجزاء، والنصر والتمكين، والتداول ...

غير أن هذه البحوث على تكاثرها وشروعها في التكاثر والتنوع بشوبها جملة من العيوب، لعل أبرزها:

- التداخل المصطلحي: إذ كثيرا ما نجد السنة الواحدة تدرس تحت مسميات عديدة مصطلح الطغيان مع الظلم والفساد ...، مصطلح العمل والأسباب والجزاء، مصطلح النصر مع والإنجاء والتمكين والاستخلاف. وهذا

التداخل يحتاج إلى تحرير المصطلحات لتمييز المصطلح الأم والأصل من المصطلحات الفروع الخادمة للأصل، وتوجيه البحوث نحو التكامل والاقتصاد في الجهد بقصد الاهتداء إلى السنن الأصلية من السنن الفرعية، والسنن التي هي أسباب والتي هي مظاهر ونواتج.

– التكرار في التناول في غياب التنسيق بين الباحثين وتقويم الجهود لتحديد ما تم بحثه وما لا يزال ينتظر، وما استقل بذاته وما ليس كذلك.

– ضعف المسألة المنهجية في تناول المصطلح القرآني عامة ومصطلحات السنن القرآنية خاصة: وذلك من جهات عديدة منها:

●غياب حضور التناول المنهجي عن كثير من الدراسات المتعلقة بسنن الله ببعده النظري المتكامل وبعده التطبيقي والمتتابع في إجراءاته وخطواته من أولها إلى آخرها.

●تعدد مناهج التناول بين من يأخذ بالمنهج الوصفي وبين من يأخذ بالمنهج التاريخي أو التحليلي، أو غير ذلك من المناهج، وهذا التعدد من شأنه أن يشتت الجهود ويباين بين النتائج.

●تباين الدراسات بين ما هو أكاديمي علمي صارم وبين من يفتقد لذلك ويتخذ طابعا صحافيا، وينبني على أحكام عامة من غبر تحقيق علمي، فيحتاج الأمر إلى استيعاب ذلك كله وتصنيفه وتحديد مستويات الدقة فيه ، وتوجيه البحث فيه من جديد.

خلاصات ونتائج:

وعموما فإن جهود المسلمين في إبراز السنن الإلهية الكونية والإنسانية لمن شأنه أن يؤدي إلى خدمة الدين خدمة متعددة الجوانب تحقق تحصيل الأفقاه الأربعة التي قصرت الأمة فيها وهي فقه الدين وفقه الواقع وفقع التنزيل وفقه التبليغ وهداية الخلق للحق.

ورغم أن الأمة في تاريخها تباين اهتمامها بفقه السنن قلة وكثرة، إلا الجهود المبذولة إلى الآن لا تزال دون المستوى المطلوب لاعتبارات، لعل أهمها:

– غلبة التنظير على التطبيق، وغلبة العلم على التوظيف والاستثمار في التربية والعمل، فرغم ما أنجز إلى اليوم من بحوث فهي لا تزال حبيسة التنظير الأكاديمي ولم يتحول بعد إلى مشروع تربوي وتعليمي يحقق المقاصد المبتغاة من الوحي بها في القرآن الكريم.

– غلبة العمل الفردي والبحث الجزئي: ذلك أن السنن الربانية سنن شاملة للدين والدنيا للكون والإنسان، والحياة والمصير، ومترابط بعضها مع بعض ، وتشكل في مجموعها نسيجا واحدا، ولذلك فإن البحث الفردي

والتجزيئي لها لا يحقق فائدة كبيرة، ولذلك فلابد من اعتبار البحث فيها مشروع الأمة وينوء بحمله العصبة أولي القوة، وهو الآن حبيس جهود الأفراد دون أن تنهض به الأمة بمؤسساتها ذات الأمر والمسؤولية العلمية والتدبيرية، وما يوجد من مؤسسات تقوم بهذا الشأن محدود معدود لا يرقى إلى الوفاء بالمطلوب.

لذلك وبناء على هذا يمكن اقتراح مجموعة من الأمور التي من شأن الأخذ بها أن يساعد في النهوض بهذا الأمر أو يمهد للنهوض به ويؤسس له على الأقل، منها:

- تخصيص علم السنن الكونية والإنسانية بالبحث العلمي النظري والتطبيقي في المعاهد والكليات الجامعية، وتخصيصها بمادة خاصة وشعبة خاصة تتضمن مواد فرعية ومتنوعة في فقه السنن تشمل جوانبه العلمية المتعددة.

- تكفل الجامعات بإدراج هذه التخصصات في برامجها التعليمية، وتوزيع ذلك على الكليات بحسب تخصصها السنن الكونية في كليات العلوم، والسنن الاجتماعية في كليات الآداب والعلوم الإنسانية وكليات القانون والاقتصاد والإدارة، وكليات التربية، وغير ذلك مما يمكن أن يكون له ارتباط بهذا المجال.

- التفكير في مراكز بحث متخصصة بحسب العلوم التي تتفرع عن علوم السنن الكونية والإنسانية، وإسناد مهمة الإشراف عليها إلى متخصصين كل في ميدانه: ففي مجال السنن الإنسانية يمكن أن تؤسس فروع تخص فقه السنن النفسية، وأخرى تخص السنن الاجتماعية، وثالثة تعنى بالسنن التاريخية والحضارية، وأخرى تخص فنون التدبير الاقتصادي، والتسيير الإداري، ويمكن أن يؤسس ذلك ويطور بحسب حاجة الأمة وكم البحوث المنجزة.

- إنشاء مؤسسات البحث في هذه القضايا والتخطيط والتنسيق والتوجيه تساعد على تكوين الأطر وإعداد البرامج وتوجيه البحث العلمي في ذلك، وتقويم المسار.

- إنشاء بنك معلومات رقمي يرصد مسيرة البحث العلمي ويوثق للمنجز وينسق بين المراكز ويشخص ما لم يتحقق ويمهد للشروع في إنجازه وفق رؤية علمية محددة الأهداف والخطوات.

- تحويل فقه السنن إلى مجال التوظيف التربوي وإشاعة ثقافته إلى مستوى التداول الاجتماعي عبر كل المؤسسات الفاعلة في هذا المجال من مؤسسات تعليمية وإعلامية ومؤسسات القرار الرسمي.

قائمة ببعض الدراسات المنجزة في مجال فقه السنن الإلهية وفي مجال التأصيل والأسلمة في العلوم الإنسانية

- السنن الإلهية: حقيقتها وإدراكها في ضوء القرآن الكريم: د، ذو الكفل بن الحاج محمد يوسف

- تبصرة المؤمنين بفقه النصر والتمكين في القرآن الكريم: علي محمد الصلابي، مكتبة الإيمان، المنصورة، ط1، د.ت.

- وعود القرآن بالتمكين للإسلام: صلاح الدين عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط1، 1425هـ/2004م.

أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات في سورة الأعراف: عبد الحميد محمود طهماز، دار القلم ، دمشق،

- الإعجاز السنني في القرآن الكريم: محمد أمحزون، المؤتمر العالمي الثامن للإعجاز العلمي في القرآن الكريم ، الكويت ، 1427هـ.

- التجديد قي دراسة الحديث النبوي الشريف على نور السنن الإلهية، سلسلة السنن الإلهية ضوابط العلوم المعرفية (3)، محمد جابري، تقديم: أبو أسامة المصطفى عبد القادر غانم الحسني، مؤسسة الندوي مكتب الدراسات والأبحاث العلمية، وجدة، 1424هـ.

- من فقه التغيير ملامح من المنهج النبوي: عمر عبيدة حسنة، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، عمان، ط1، 1415هـ/1995م.

- السنن الإلهية في السيرة النبوية: أبو اليسر رشيد كهوس، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2010م.

- بحوث في السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي قراءة ورؤية جديدة: عبد الشافي محمد عبد المطلب، دار السلام، القاهرة، ط1، 1428هـ/ 2007م.

- المنهج الحركي للسيرة النبوية: منير محمد الغضبان، مكتب المنار، الأردن، ط1404،2هـ/1985م

- أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق: أحمد كنعان، تقديم عمر عبيد حسنة، سلسلة كتاب الأمة ، مركز البحوث والمعلومات التابع للمحاكم الشرعية والشؤون الدينية، بدولة قطر، ط1، محرم 1411هـ.

- أسباب هلاك الأمم وسنة الله في القوم المجرمين والمنحرفين: عبد الله التليدي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط2، 1418هـ/1998م.

- التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية: الدكتور عز الدين توفيق

- التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية: محمد قطب

- التفسير الإسلامي للتاريخ: عماد الدين خليل، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1427هـ/2006م.

– تفسير التاريخ علم إسلامي: عبد الحليم عويس، دار الصحوة،القاهرة، د.ت.

– حول إعادة التاريخ الإسلامي: عماد الدين خليل، دار ابن كثير ط1، 1426هـ/2005م.

– حول التفسير الإسلامي للتاريخ: محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1427هـ/2006م.

– حركة التاريخ في القرآن الكريم، عامر الكفيشي، ضمن سلسلة قضايا إسلامية، دار الهادي، بيروت، ط1، 1424هـ/2003.

– دفاع عن التاريخ الإسلامي: المنهاج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره: محمد رشاد خليل، تمهيد وتقديم: محمد أمحزون، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط.1، 1406هـ/1986م.

– التفسير الإسلامي لسقوط العالم العربي المعاصر: إدريس الكتاني، منشورات نادي الفكر الإسلامي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط3، 1419هـ/1999م.

– التمكين للأمة الإسلامية: محمد يوسف، دار السلام، القاهرة، ط1، 1418ه/ 1997م . – الخريطة القرآنية للمجتمعات البشرية: الدكتور إدريس الكتاني.

– السنن الإلهية في رحاب القرآن الكريم: مصطفى الشكعة، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة،1423ه/2003م.

– السنن الإلهية في النفس البشرية: عمر أحمد عمر، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ط1، 1412هـ/1992م.

– سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة: د. حسين شرفة، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط1، 1429ه/2008م.

– سنن الله في المجتمع من خلال القرآن: محمد صادق العرجون، الدار السعودية للنشر والتوزيع،ط2، 1397ه/1977م.

– سنن الله في الآفاق والأنفس وعلاقتها بالمجتمع: محمد أمحزون، مجلة البيان اللندنية، عدد243، السنة 22، ذو القعدة1428هـ/2007م.

– السنن الاجتماعية في القرآن الكريم: محمد السيسي، مجلة رسالة القرآن، عدد1، محرم، صفر، ربيع الأول1425هـ/مارس، أبريل،ماي2004م.

– سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها: محمد هيشور، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة الرسائل الجامعية(30)، القاهرة.

– السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم: أصول وضوابط: مجدي محمد محمد عاشور، إشراف: مصطفى محمد الشكعة، تقديم: علي جمعة، دار السلام، القاهرة، ط1427، 1هـ/2006م.

– السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية: عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1413، 1هـ/1993م.

– السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك، شريف الشيخ صالح أحمد الخطيب، رسالة دكتوراه مرقونة بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1407ه/1987م.

– الهجرة بين سنن الله الجارية وسننه الخارقة: د.طه الدسوقي حبيشي، القاهرة، ط1، 1418ه/1998م.

– الدراسات المستقبلية بين السنن الإلهية والدراسات المعاصرة، سلسلة السنن الإلهية ضوابط العلوم المعرفية(5)، محمد جابري، مؤسسة الندوي، مرجع سابق.

– العمل قدرة وإرادة، سلسلة سنن تغيير النفس والمجتمع: جودت سعيد، دار الفكر المعاصر، بيروتـ لبنان، ط2، 1414هـ/1993م.

– سنة الابتلاء: أسامة خياط، مجلة أمتي(الكويتية)، عدد24، رجب 1427هـ/ غشت2006م.

– سنة التدافع بين الحق والباطل: عبد الله الشرمان، مجلة الفرقان(الأردنية) السنة 6، العدد40، ربيع الآخر 1426هـ/ أيار2005م.

– سنة الله التي لا تتبدل ولا تتحول: أحمد حسن فرحات، دار عمان للنشر والتوزيع، عمان الأردن، 1420ه/1999م.

– المسلمون وفقه السنن: محمد أمحزون، مجلة المنار الجديد، مصر، القاهرة، السنة 6، العدد 24، شعبان1424هـ/ 2003م.

– المسلمون كتابة التاريخ: دراسة في التأصيل الإسلامي لعلم التاريخ: د. عبد العليم عبد الرحمن خضر، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1415ه/1995م

– فقه التاريخ: د. عبد الحليم عويس، دار الصحوة، القاهرة، 1986م.

– الإنسان بين المادية والإسلام: محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، بيروت، ط9، 1408ه/ 1988م.

– دراسات في النفس الإنسانية: محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، بيروت، ط6، 1403ه/ 1983م.

– معرفة النفس الإنسانية في الكتاب والسنة: سميح عاطف الزين، دار الكتاب اللبناني ، بيروت، ودار الكتاب المصري، القاهرة، 1411ه/1991م.

فهرس المحتويات

تقديم

المحور الأول: في التحديد الدلالي

المحور الثاني: مسيرة جهود العلماء في خدمة القرآن الكريم من خلال السنن الإلهية في التاريخ والاجتماع البشري

- مرحلة النبوة والخلافة الراشدة:
- مرحلة تدوين العلوم وظهور الفرق:
- مرحلة الازدهار:
- مرحلة الضعف والانهيار:
- مرحلة النهضة المعاصرة وجهود حركات الإصلاح والصحوة الإسلامية المباركة:

المحور الثالث: من جانب بيان أنواعها ومواردها:

أولا – من جانب الكشف عن أنواعها

ثانيا- من جانب الكشف عن مصادرها ومظانها ومواردها:

المحور الرابع: من جانب بيان صيغها :

المحور الخامس: من جانب الكشف عن خصائصها

المحور السادس: قضايا وإشكالات في مسألة السنن الإلهية:

المحور السابع: من جانب أهميتها ووظائفها وبيان الحكمة من تشريعها

المحور الثامن: نماذج من السنن الإلهية في القرآن الكريم

خلاصات ونتائج:

قائمة ببعض الدراسات المنجزة في مجال فقه السنن الإلهية وفي مجال التأصيل والأسلمة